

ثانياً: الفرق بين مصطلح البلاغة والفصاحة والبيان

١/ البلاغة:

استخدمت كلمة البلاغة في المجال الاصطلاحيّ الذي انتقلت إليه، استخداماً لم تستقرّ فيه على دلالة واحدة عبر مسيرتها التاريخية، وهذا ما جعلها تخضع في نشأتها وتطورها إلى عملية التّغيير الذي يسري عادة على كثير من الكلمات ويكسبها مفاهيماً متعدّدة، لقد اتّضح من خلال تتبّع استخدامات هذه الكلمة أنّها كانت مستخدمة في الجاهليّة، ويرجع استخدامها إلى رجلين هما: النّعمان بن المنذر وأكثم بن صيفيّ؛ فالأوّل جاءت عنده بصيغة التّفصيل (أفعل=أبلغ) وهو يوازن بين شعر النّابغة وبين كلام نثريّ لأحد المادحين له، بعد أن أعجب بكلامه وتأثّر به، فقال له: "أنت في وصفك وملاحاة رصفك أبلغ من النّابغة في نظمه"، وكلمة أبلغ هنا تتصرف إلى وصف المتكلّم فيما قاله من كلام، هذا الاستخدام يمثّل بداية التّعامل مع هذه الكلمة بوصفها وصفاً للمتكلّم الذي يقول كلاماً ويؤثّر به في المتلقّي، ويحرّك مشاعره، وذلك نظراً لما يحمل من صفات تتمثّل في الجودة والصّياغة الجميلة. أمّا الرّجل الثّاني أكثم بن صيفي فقد استخدم الكلمة بالصّيغة المعرّفة كما جاء ذلك عنه في إحدى خطبه؛ حيث قال: "البلاغة الإيجاز" وهذا المعنى ينصرف إلى وصف الكلام.

بعد العصر الجاهلي، يعدّ الجاحظ من أبرز الذين تحدّثوا عن هذا المصطلح وخاصّة في كتابه الشّهير "البيان والتّبيين"، وفي تناوله لمصطلح البلاغة، يعرض علينا طائفة من المفاهيم تخصّ بعض الشّعوب:

-المفهوم الأوّل: قيل للفارسيّ ما البلاغة؟ فقال: "معرفة الفصل من الوصل".

-المفهوم الثّاني: قيل لليوناني: ما البلاغة؟ فقال: "تصحيح الأقسام واختيار اكلام".

-المفهوم الثّالث: قيل للرّومي: ما البلاغة؟ فقال: "حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة".

-المفهوم الرّابع: قيل للهنديّ: ما البلاغة؟ فقال: "وضوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة".

استنتاج:

قصد الجاحظ بعرض هذه المفاهيم؛ أنّها لا تفوق البلاغة العربيّة بأيّ مزيّة من المزايا، بل أنّ البلاغة العربيّة تفوقها بكثير، وإذا نظرنا إلى كلّ مفهوم على حدى فإنّ هذا المفهوم يبدو هزيراً أمام البلاغة العربيّة، هذا ما يتماشى مع النّهج الذي سار عليه الجاحظ في الكتاب؛ وهو الدّفاع عن العرب والرّد على التّهم التي ألصقت بهم وبالبلاغة العربيّة، والإشهاد لهم في الوقت نفسه بأنّهم أمّة متحضّرة وما تملكه هذه الشّعوب مجتمعة في البلاغة لا يصمد أمام البلاغة العربيّة أو البيان العربيّ. هذا عن المفهوم

الأجنبيّ للبلاغة، وإذا عدنا للمفهوم العربيّ نجد الجاحظ يضع له عدّة مفاهيم، نورد أهمّها والتي يعود بعضها إلى عهد معاوية بن أبي سفيان (60هـ)، حيث سأل معاوية شخصا يدعى "صحار" عن البلاغة بقوله: "ما تعدّون البلاغة فيكم؟" فأجاب: "الإيجاز"، عاد "معاوية" وسأله عن معنى الإيجاز؟ فقال: "أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ"، وسئل مرّة أعرابيا عن البلاغة، فأجاب: "الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خلل".

نفهم من هذا الكلام أنّ للبلاغة مواقف ترتبط بها؛ فهناك المواقف التي تستدعي الإيجاز، وهناك المواقف التي تستدعي الإطناب، والبلاغة تتحقّق عند مراعاة هذه المواقف والمقامات ف"كلّ مقام مقال". وهناك مفاهيم أخرى أصرّ الجاحظ على ذكرها:

- ابن المقفّع: في قوله: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري على وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فغاية ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة".

- العتابي: عرّف البلاغة بقوله: "كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة فهو بليغ".

- غير منسوب: "لا يكون الكلام يستحقّ اسم البلاغة حتّى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك".

كما ورد مصطلح البلاغة عند عدد من الدارسين بعد الجاحظ، واجتهدوا فيه، أبرزهم:

- ابن سنان الخفاجي: في كتابه: "سرّ الفصاحة" حاول أن يفرّق بين البلاغة والفصاحة؛ فالبلاغة تختصّ بوصف الألفاظ مع المعاني أمّا الفصاحة تختصّ بوصف الألفاظ فقط، فلا يقال مثلا عن كلمة واحدة بليغة، وإن قيل عنها فصيحة، "وكلّ كلام بليغ فصيح وليس كلّ كلام فصيح بليغ".

- الجرجاني عبد القاهر: لم يقدّم فيه مفهوما متميّزا؛ ذلك أنّ البلاغة عنده ترادف الفصاحة والبيان.

- القزويني: فرّق بين البلاغة والفصاحة، وسكت عن البيان، والبلاغة عنده تعني: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"، وهو التعريف الذي استقرّت عليه البلاغة العربيّة إلى عصرنا الحاليّ.

سؤال: هل البلاغة علم؟ أم فنّ؟ أم وسيلة؟ أم غاية؟